المخطوطات العربية

د. عبد النبي اصطيف

الحديث عن المخطوطات العربية حديث ذو شجون • وليس على المرء أن يبحث طويلا عن مباعث هذه الشجون لأنها كثيرة ، متعددة الوجوه ومتباينة الصور • ولكنها في مجموعها تشير الى أمر واحد ، وهو الحظ العاثر الذي قدر لهذه المخطوطات أن تقع فيه •

قد يشير المرء بالطبع الى ما فعله هولاكو يوم دخل بغداد ، عندما شاء حبه للون الأسود أن يشمل حتى نهر دجلة ، فألقى بمحتويات مكتبات حاضرة الخلافة العباسية في مياهه ، ولكن هذا ليس بيت القصيد ، وليس ثمة من جدوى من البكاء على أطلال هذه المكتبات لأن في الحياة العربية المعاصرة ما يهون من بشاعة حدث كهذا •

* * *

لنتفق في البداية على أن الكثير من المخطوطات قد تسرب بشتى السبل الى خارج الوطن العربي خلال فترة الاحتلال العثماني التي امتدت أربعة قرون ، وأن هذه المخطوطات توزعت في مختلف بقاع الأرض بقاراتها الخمس • وحسب المرء أن يقلب فهارس مكتبات العالم الكبرى (في لندن ، أكسفورد ، باريس ، برلين وغيرها) ليقدر مدى حجم هذه المخطوطات وعظيم أهميتها بالنسبة الى فهم تاريخ الحضارة العربية •

ولعل مما يخفف من وقع هذا ، أن أغلب هذه المكتبات قد عمد الى فهرسة هذه المخطوطات فهرسة جيدة ومن ثم نشر هذه الفهارس في مجلدات بمختلف اللغات يمكن للقارىء أن يفيد منها وأن يراجعها ان دعته الحاجة الى ذلك • ولكن ثمة الكثير الكثير من المخطوطات التي لم تتيسر فهرستها والتي ما زالت مكدسة في صناديق تنتظر الكشف عنها وفهرستها واتاحة الاطلاع عليها للباحثين •

وهناك اضافة الى مجموعات هذه المكتبات العامة المفهرسة والمجموعات التي تنتظر طريقها الى الفهرسة ، مجموعات أخرى لا تحصى من المخطوطات الخاصة والتي يمتلكها أفراد عرب وأجانب إما لا يعلمون بقيمتها ولا يهتمون بها ، أو هم يعلمون هذا ويفيدون منه فتتحول هذه المخطوطات الى سلع نفيسة تباع بالمزاد العلني لتنتشر من جديد ضمن أثاث وممتلكات أشخاص آخرين ، وبالتالي يطول انتظار المعنيين بها ، حتى يروها متاحة لهم أو منشورة محققة •

قد يظن القارىء أن صاحب هذه السطور يبالغ في تقدير حجم هذه المخطوطات وعددها وأهميتها ، ولذلك فليسمح لي أن أقدم مثالا واحداً يعطي فكرة ما عن هذه الأمور •

في صيف عام ١٩٧٨ حمل الي صديق انكليزي من معهد الدراسات الشرقية بجامعة أكسفورد فهرساً وصله من قبل الناشر الهولندي بريل في ليدن ، يعرضه علي • أذكر أنه قال لي عندها : لعلك تجد سبيلا عند من تعرف من المهتمين بهذه النفائس في الوطن العربي لشرائها وأيداعها في مكتبة عامة قبل أن تتفرق وتضيع. ونظرت في المجلد وتبينت أنه فهرس لمجموعة من المخطوطات العربية هي في حوزة الناشر بريل •

والحقيقة أن ما روّعني في مراجعة هذا الفهرس هو الأرقام التي تضمها فهو:

١ ـ الفهرس رقم خمسمائة في قائمة فهارس مجموعة بريل الخاصة للمخطوطات والتي نشر أولها عام ١٨٦٨ بتحرير الكونت كارلو لاندبرغ Count Carlo Landberg

٢ ـ وهو يتضمن ما يقرب من مائتين وسبعين مخطوطة في المعرفة والبحث والفنون العسكرية والنحو والمعاجم والبلاغة والتاريخ والجغرافية والأدعية والحديث والتصوف والقرآن وعلومه ، والشعر الديني ، والفقه الحنفي ومدارس الفقه الأخرى وعلوم الحيوان والفلك والموسيقا والكلام ، والأدب والفلسفة وغير ذلك •

٣ ـ وتبلغ القيمة الاجمالية لهذه المخطوطاتما يقرب من ستين ألفا من الجنيهات (حوالي ٣٢٥ ألف غيلدر) ٠

٤ ـ وثمة ملاحظة مرفقة بالفهرس تشير الى أن آخر موعد لتلقي الطلبات هو شهر آب ١٩٧٨ وهو موعد انتهاء بيع المجموعة ككل ٠

ولا شك أن المرء سيسائل نفسه بعدالنظر في هذه المعطيات ، كم يبلغ عدد المخطوطات التي تضمها مجموعة بريل (يشير المدير الاداري للدار الى أنه قد أعلن في الفهارس الخمسمائة السابقة عن مئات الآلاف من العناوين ـ ص ٥) ، ومن أين تم الحصول عليها ، وكيف ، ومتى ، وما الذي ستسوقه الأقدار لها ، ومن سيشتريها ـ أو اشتراها بالفعل بعد مضي هذه السنوات ـ ومن هي الأيدي التي ستتولى حفظها وتحقيقها واخراجها للباحثين ومتى سيكون ذلك ٠ وكيف يغدو كل ذلك ممكناً بعد أن تتفرق اثر انتهاء هذه المزادات العلنية ؟ (يشير معدا الفهرس الدكتوران ب ، س ، فان كوننغزفلد ، و ق ، السامرائي الى أنهما يأملان أن تصبح هذه المجموعة في حوزة مؤسسة عامة تضعها في خدمة الباحثين دون تردد أو صعوبات ص ٧) ٠

واذا ما شاء المرء أن يتجاوز السؤال عن مجموعة بريل (أو مجموعاته) الى غيرها ، فانه ربما يسأل كم هو عدد أمثال بريل من العرب والأجانب في العالم ٠ وكم هو عدد هؤلاء الذين ينصرفون الى الاهتمام بهذه المخطوطات بدوافع مختلفة (علمية وفنية وتجارية ٠٠) فيكلفون أنفسهم أو غيرهم مأجورين عناء فهرستها والاعلان عنها ثم بيعها ٠ وكم هو عدد هؤلاء الذين يؤثرون أنفسهم بمخطوطاتهم فلا يطلعون عليها أحداً ، وكم هو عدد أولئك الذين لا يعرفون قيمة ما تحتويه مجموعاتهم فيتركون الأرضة تعيث فيها فساداً ، وأخيراً كم هو عدد المخطوطات المدفونة تحت الأرض في صناديق أو في غيرها والتي ربما لن يعرف بوجودها قبل التنقيب والكشف عن كثير من المناطق الأثرية المدمرة نتيجة ما حاق بالمنطقة العربية من خراب ودمار منذ الهجمات التركمانية والصليبية حتى العصر الحاضر !!!

قد يقول البعض ممن يسرّهم التشفي انها لن تكون أسعد حظاً من تلك المخطوطات التي ظهرت في طبعات يقال انها محققة ولكنها منسوخة ممسوخة ومشوهة.

ومع أن هذا حق في كثير من الأمثلة ، الا أنه لا يسوغ على الاطلاق ولا يهوّن في شيء من حجم الخسارة التي تلحق بالباحثين العرب والأجانب من المهتمين بالحضارة العربية وتاريخها •

وقد يقول آخرون : « أية خسارة هذه التي تشير اليها ، ونحن نعيش في الثمانينات من القرن العشرين ، أما آن لنا أن ننتمي حقاً وصدقاً الى هذا العصر ؟ » « ألسنا بحاجة الى تجاوز المراحل السابقة من تاريخنا الثقافي واللحاق بغيرنا من الدول والأمم التي باتت تخطط الآن للقرن الحادي والعشرين ؟ » •

والحقيقة أن مسألة الانتماء الى عصرنا الحاضر هي بيت القصيد وغاية الغايات ، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه علينا في هذا السياق هو : هل ننتمي الى هذا العصر كعرب واثقين من هويتهم الثقافية ومن مواقع أقدامهم في هذه المسيرة الحضارية ، أم ننتمي اليه ككواكب تدور تابعة للثقافات الأجنبية المختلفة ؟

لا أظن أن ثمة من يماري في أننا ينبغي أن نحفظ هويتنا الثقافية وأن ننتمي الى عصرنا الحاضر في الوقت نفسه • واذا كان الانتماء الى هذا العصر يقتضي منا الانفتاح على ما يجري فيه في مختلف المجالات واستيعابه والافادة منه على النحو الصحيح ، فان الحفاظ على هويتنا الثقافية يقتضي منا أيضاً الانفتاح على ثقافتنا في مختلف عصورها ووجوهها وجوانبها واستيعاب كل ذلك والافادة منه على النحو الصحيح أيضاً • ومن خلال عملية التفاعل بين هاتين العمليتين : الانفتاح على أعماقنا الثقافية من جانب ، والانفتاح على معطيات الثقافة المعاصرة من جانب آخر نستطيع أن نحفظ وجودنا الثقافي كعرب وأن نضمن استمرارية هذا الوجود وتتابعه حتى نسهم فيما بعد في اغناء الثقافة العالمية المعاصرة على النحو الذي أغنى به أجدادنا ثقافتهم العالمية المعاصرة ، وبالتالي نستطيع أن نزعم لأنفسنا أننا قد انتمينا حقاً لهذا العصر •

ولكن كيف السبيل الى انفتاحنا على ثقافتنا الممتدة على عدة قرون انفتاحاً يكون ذا جدوى ؟

من الطبيعي أننا عندما نتحدث عن ثقافة ممتدة على قرون عديدة ، فانما نعني في الواقع الصورة التي كوّناها في أذهاننا عن هذه الثقافة . وهي صورة أملتها المواد والمعطيات التي توفرت لنا عن هذه الثقافة . ولا شك أن طبيعة هذه المواد وحجمها وشموليتها واستمراريتها وغير ذلك من أمور تحدد طبيعة هذه الصورة وتضاريسها الكبرى ، وأن أي تغير يطرأ على أوضاعها سوف يؤدي الى تغير في الصورة التي نعرفها عن هذه الثقافة . وبالتالي فان استقصاء مصادر الثقافة العربية هو الخطوة الأولى في الطريق نحو تكوين صورة حقيقية عن هذه الثقافة : صورة مستمرة متتابعة ونامية وليست الصورة التي نعرفها الآن والقائمة في الواقع على مصادر محدودة جداً اذا ما قيست بما يمكن أن يتوفر من هذه المصادر لو كان لها أن تلقى الاهتمام الجديرة به .

ولا شك أن المخطوطات العربية هي أثمن هذه المصادر وأهمها في استكمال صورتنا عن ثقافتنا التي نود من خلالها أن نثبت وجودنا الثقافي كعرب في القرن العشرين وفي القرن الذي يليه . ومن هنا كانت أهمية حصرها وفهرستها وتحقيقها واخراجها من بحر الظلمات الذي قدّر لها أن تغرق فيه . (ربما كان من المفارقة حقاً أن يشير المرء الى أن جهود المستشرقين في هذا الميدان ، ميدان جمع المخطوطات وفهرستها وتحقيقها يفوق كماً ونوعاً جهود الباحثين العرب ، ولكن العرب ما زالوا عالة – حتى في دراستهم لثقافتهم – على الغرب في جميع الميادين يستوي في ذلك الكتاب والطائرة) .

ان المتمعن في الكثير من الدراسات التي تتناول الحضارة العربية بمختلف جوانبها ، وخاصة في عصور الدول المتتابعة أو ما يسمى بفترة الانحطاط ، أو ما يليها مما يسمى بعصر النهضة ليشعر بالأسى العميق لما يطلق من أحكام عامة متسرعة في حق هذه العصور وفي حق غيرها . وليس ثمة من حاجة في هذا الموضع أن يشير المرء الى أن المسؤول الأكبر عن اطلاق هذه الأحكام هو أن الكثرة الكاثرة من آثار هذه الفترات ما زالت ضائعة لا يُعرف مكانها ؛ أو متوضعة ضمن صناديق في مجموعات خاصة أو عامة ما تزال تنتظر طريقها الى الرفوف ؛ أو مفهرسة متفرقة في مكتبات العالم ؛ أو محققة تحقيقاً رديئاً لا يغني البحث ولا الباحثين .

ان الخطوة الأولى في الطريق نحو تقويم أفضل للحضارة العربية ينبغي أن تكون جمع هذا التراث العربي المتفرق والكشف عنه ثم فهرسته ونشره وتيسيره للدارسين من العرب والأجانب . وبالطبع فان أمراً كهذا لا يمكن أن يتحقق في يوم وليلة ، ولا تكفي فيه الجهود الفردية أو المحدودة ، بل لا بد له من وقت طويل ومن جهود مشتركة ومنسقة ومستمرة ومخلصة يمكن أن تؤتي أكلها بعد حين .

قد أكون متفائلا أكثر من اللازم . وقد ترسم كلمتي هذه ابتسامات متفاوتة على شفاه الكثيرين ، ولذلك فانني لن أستغرب اذا ما أشارت هذه المخطوطات الى صورة تجسد وضعها وترسمه بدقة ، صورة طالما ترددت على مسامع دارسي البلاغة العربية هي :

ان حظي كدقيق فوق شوك نثروه
ثم قالوا لحفاةٍ يوم ريح اجمعوه

جامعة دمشق

★ ★ ★